السلطان عبد الحميد الثاني ... بين المطرقة والسندان

إعـــــداد

أ . منال ماجد أحمد الماجد بوطيبان

أستاذ بالهيئة العامة للتعليم التطبيقى – بكلية التربية الأساسية

Doi : 10.12816/0053442

مجلة الدراسات التربوية والانسانية . كلية التربية . جامعة دمنهور

المجلدالحادى عشر – العدد الأول – لسنة 2019

Doi : 10.12816/0053442

السلطان عبد الحميد الثاني ... بين المطرقة والسندان

منال ماجد أحمد الماجد بوطيبان

Doi : 10.12816/0053442

المقدمة:

السلطان عبد الحميد الثاني، آخر سلطان فعلي للدولة العثمانية، وهو من أكثر الرجال الذين اختلف عليهم الناس، بين من يراه حامي حمى العروبة والإسلام، ومن يراه المستبد بحكم المسلمين، وبين من يراه رمزًا للعدالة والقوة والحنكة السياسية، وآخرين لا يرون فيه إلا حاكما ظالما مستبدا ديكتاتوري الحكم والسلطة.

وإن الأحداث التي سبقت وواكبت حكم السلطان عبد الحميد، قد ألزمته ببعض الأمور والتصرفات التي لم يكن له دونها أي بديل، وقد كانت المؤامرات على الدولة العثمانية من الداخل والخارج، تجعل السلطان عبد الحميد يتنبأ بما يحاك له هنا وهناك، حتى أنه استشعر كثيرا رغبة من حوله في تقييد حكمه على البلاد، ولذا لجأ لبعض القرارات التي توحي بصدق نظرته المستقبلية وترصده لوقوع المحتوم، وذلك لأن الحال "في السياسة كما في الطقس، فإن العوامل المؤثرة في أحداث الغد يمكن رصدها من اليوم... وفي حسابات الأرصاد الجوية فإن الخبراء، بعد إجراء حساباتهم، يتحفظون دائما عندما يتنبؤون بأحوال الطقس لمفاجأة تقع في اللحظة الأخيرة، ولكن المفاجآت لا تقع كل يوم، ففي حسابات الأرصاد السياسية، فإن الذين يتعرضون لها، عليهم – أيضًا – أن يتحفظوا لمفاجأة تقع في اللحظة الأخيرة، ولكن المفاجآت – في السياسة أيضًا – ليست قانون كل يوم"[١]، خاصة وأن النبوءات ترى أن نهاية الدولة العثمانية قربت[٢].

---

[١] الحل والحرب، محمد حسنين هيكل، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة السابعة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٤.

[٢] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٤٧.

وقد كتب عن شخص السلطان عبد الحميد وعن أهله بعد إعلان الدستور كتب كثيرة وكان كثير مما كتب بإيعاز من الاتحاديين بعد تسلمهم الحكم، أو بأيدي وأقلام مشبوهة، قصدت عن عمد تشويه سمعة الرجل والإساءة إلى دعوته في جمع شمل الأمة الإسلامية ونتج عن ذلك تحريف التاريخ ومسخ الحقائق وتبدل وقائعه. لكن مضي الزمن كان كفيلاً لكشف زيف المتآمرين وفضح مكائدهم وتبين للناس أن ما فعله هؤلاء كان خيانة وغدراً. وهذا ما أظهرته الأيام بالنسبة للذين تآمروا على السلطان عبد الحميد وخلعوه حتى لقد عرفوا هم أنهم كانوا دمى هزيلة تحركها اصابع اجنبية كافرة معروفة بعدائها للإسلام والمسلمين وظهر للمسلم المتبصر أن الرجل كان صادقاً في عقيدته مخلصاً لأمته جاداً في الدعوى إلى النهضة والإصلاح وفي الحفاظ على كل ذرة تراب رواتها دماء الشهداء[٣].

وإن هذا البحث، يعرض لحياة وشخصية هذا الرجل من البداية والنهاية، عرضًا حياديًا مختصرًا قائمًا على الحقائق التاريخية الموثقة.

[٣] انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٩٠٨-١٩٩١م: مكتبة وزارة الأوقاف الكويت، مؤسسة الرسالة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية صفحة ٨.

تمهيد

حياته المبكرة ونشأته وتدينه

ولد السلطان عبد الحميد الثاني في ١٦ شعبان سنة ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م)[٤]، والده هو السلطان عبد المجيد (١٨٢٢– ١٨٦١)[٥]، الذي تولى الخلافة بعد أبيه السلطان محمود الثاني ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وهو السلطان الحادي والثلاثين للدولة العثمانية، بينما السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثين[٦].

ماتت والدة السلطان عبد الحميد الثاني وهو في العاشرة من عمره، وتولته بالرعاية الزوجة الثانية لأبيه، واعتبرته ابنها لأنها كانت عقيماً، فأغدقت عليه من حنانها وأولته رعايتها وأحسنت تربيته بل وأوصت بميراثها له، وكانت امرأة وقور متدينة هادئة الطباع خفيضة الصوت، مما انعكس على شخصية السلطان عبد الحميد في تكوين شخصيته، وكان له الأثر البالغ عليه طوال حياته[٧].

تعلم السلطان عبد الحميد الموسيقى الغربية وتعلم العزف على البيانو، وتعلم العزف على الكمان، كما تعلم الفارسية والعربية والفرنسية، وتلقى الأدب العثماني والأدب الفرنسي والعلوم الإسلامية وخاصة الحديث، وتعلم الخط، وآداب

---

[٤] انظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص ٣٩٩.

[٥] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٤٥٥، وص ٥٢٩.

[٦] انظر: المرجع السابق، ص ٤٥٥، وص ٥٨٧.

[٧] انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ١٧. وانظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: د. محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، تركيا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٩٥.

الطريقة الشاذلية والطريقة القادرية، وكذلك الاقتصاد السياسي والتاريخ العثماني، وفنون العسكرية.

نشأ السلطان عبد الحميد في صحة جيدة، وكان يزاول الرياضة وركوب الخيل ويتقن استخدام السلاح، مارس الشراب فترة من الزمن ثم تركه، وأخلص في أداء واجباته الدينية، وعرف عنه الاقتصاد بغير شح، وقلة الكلام وكثرة الإصغاء، مع الحذر والقدرة على معرفة النفوس البشرية، وكان كتوما جدا ويصعب غشه[٨].

كان السلطان عبد الحميد شكاكا وكتوما كما وصفه أبوه، وكان يشبه السلطان عمه عبد العزيز في نوع حياته، فكان مسلّما شرقيًا عثمانيًا بحق، وقد اشتهر بين الناس بأنه من أولياء الله، وذلك لما اشتهر عنه من تقواه وصلاح الحال[٩]، كما عرف عنه براعته وذكاؤه في الحوار السياسي[١٠].

انتمى السلطان عبد الحميد إلى جمعية العثمانيين الجدد في بداية تشكيلها كأخيه الأكبر، واستمر فيها سنة اكتشف فيها غاية الجمعية وأهدافها الخفية، وعلم أنها تضر بمصالح الدولة فانسحب منها بينما استمر أخوه السلطان مراد بها إلى النهاية، وكان عبد الحميد يعشق السياسة الخارجية، وكان له فيها قدرات ممتازة، وكان يتابع الصحافة يوميا، مع شغفه بمعرفة كل ما يجري حوله في العالم[١١].

ويعتبر عبد الحميد أعظم خليفة في عصر انحطاط الدولة ولا شك أنه قام بأعمال وخدمات جليلة للدولة العثمانية ونذكر بعض هذه الخدمات إلى الذين يتهمون هذا السلطان بمعادات العلم خاصة في مجال التعليم والتثقيف وقد أنشأ الدور والمعاهد والكليات: دار العلوم السياسية، الجامعة بفروعها.. العلوم والحقوق

---

[٨] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٩.

[٩] الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، وقف البحوث العثمانية، (د. ط)، ٢٠٠٨م، ص ٤٢٧.

[١٠] انظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٠١.

[١١] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٩، وص ١٠٠.

والآداب، أكاديمية الفنون الجميلة، كلية الهندسة العالية، المدرسة المالية، مدرسة التجارة، مدرسة الزراعة العالية، مدرسة التجارة البحرية، مدرسة الإحراج والمعادن، مدرسة اللغات، مدرسة المعوقين، دار المعلمات، مدرسة الفنون النسوية وهو مؤسس التعليم الابتدائي والمتوسط على التراث الغربي، وقد أنشأ المدارس الإعدادية والثانوية في كافة الولايات وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الإعدادية وها هي بعض المؤسسات الثقافية التي فتحها: متحف الآثار القديمة، المتحف العسكري، مكتبة بايزيد، مكتبة يلدز، مدرسة الطب، ثانوية حيدر باشا، كما بنا مستشفى الأطفال ودار العجزة من ماله الخاص وكذلك مركز البريد العام ومبنى دار الفنون ودار النفوس العامة ومد مشاكل المياه التي أنقذت إسطنبول من العطش (المياه الحميدية) وافتتح الغرف التجارية والزراعية والصناعية وفي عهده جرى توسيع معمل الطرابيش وافتتاح معمل الخزف (السيراميك) ومد الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة المسمى بالخط الحديدي الحجازي خدمة للإسلام والمسلمين ولإصلاحاته العسكرية الهامة حيث استخدم عدد من الجنرالات الألمان المختصين لتدريب الجيش العثماني حسب متطلبات العصر وأرسل بعثات عسكرية إلى المانيا كما افتتح الإعدادات العسكرية وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة[١٢].

[١٢] انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية (١٩٠٨-١٨٩١)، ص١٣، ص١٤.

المبحث الأول

توليه الحكم وسياساته الداخلية ومشاريعه

لم يتول السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم بعد أبيه السلطان عبد المجيد مباشرة، الذي كان السلطان الحادي والثلاثين للدولة العثمانية، بينما السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثين[١٣]، وإنما كان بينهما اثنان من سلاطين الدولة العثمانية، أحدهما عم السلطان عبد الحميد، والثاني أخوه الأكبر، فالسلطان عبد الحميد الثاني كان ولي عهد ثالث منذ ولادته، وظل كذلك طوال مدة خلافة أبيه، وكان عمه عبد العزيز أفندي وقتها ولي العهد، بينما كان أخوه الأكبر مراد أفندي ولي العهد الثاني[١٤].

كان السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني يجعل لحركة تغريب الدولة العثمانية صفة رسمية، فقد أمر بتبني الدولة لهذه الحركة عندما أصدر فرماني التنظيمات عامي ١٨٥٤م و١٨٥٦م، وبهما بدأ عهد التنظيمات في الدولة العثمانية، وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، واستلهام الروح الغربية في الحياة، والفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات، واستبعاد العمل بالشريعة الإسلامية[١٥].

وتولى الخلافة العثمانية من بعده أخوه السلطان عبد العزيز (١٨٣٠-١٨٧٦م)، وقد سار على نهج أخيه فيما يتعلق بحركة التغريب، حتى تم عزله سنة ١٨٧٦م[١٦]، وتولى الخلافة العثمانية من بعده السلطان مراد الخامس

---

[١٣] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٤٥٥.

[١٤] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٥.

[١٥] انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، د. محمد حرب، مرجع سابق، ص ١٧.

[١٦] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٥٣٠، وص ٥٧٩، وص ٥٨٤-٥٨٦.

(١٨٤٠– ١٩٠٤هـ)[١٧]، أخو السلطان عبد الحميد الثاني، الذي لم يستمر طويلًا في الحكم بسبب ظهور علامات الاضطراب العصبي عليه عقب توليه الخلافة بنحو أسبوع، وازدادت الحالة سوءًا حتى أنه لم يعد يميز الوزراء عن بعضهم، فتم خلعه، وتولى الخلافة من بعده أخوه السلطان عبد الحميد الثاني.

تولى السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد السلطة في ١٨ شعبان سنة ١٢٩٣هـ الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٦م[١٨]، وكان شاهدًا على حماية كل من: أبيه السلطان عبد المجيد، وعمه السلطان عبد العزيز، لحركة تغريب الدولة العثمانية، وأدرك أطماع الدول الغربية وروسيا في الدولة، ورأى أن ذلك كله ليس إلا تدخلًا ممنهجًا ومخططًا له لا يهدف إلا لتدمير الدولة العثمانية[١٩].

عُرف عن السلطان عبد الحميد منذ شبابه تمسكه بالتقاليد الشرقية الإسلامية والعثمانية التركية وعاش حياته محافظًا عليها، ولهذا كان يرى أنه ينبغي اقتباس العلم والتكنولوجيا من الغرب فقط، مع الاطلاع على الثقافة الغربية، دون أخذ طريقة المعيشة منهم ودون تقليدها، ويؤمن بنظام التنظيمات، ويعتنق مبدأ الانتفاع من التوازن الدولي، وكان بذلك يختلف كثيرًا في تفكيره عن تفكير أبيه السلطان عبد المجيد وأخيه السلطان مراد[٢٠]. ومع تسلمه مقاليد السلطة، أبدى لوزرائه رغبته في إصلاح الأمور الداخلية والخارجية للدولة العلية واتخاذ التدابير اللازمة وتنظيم قوانين المملكة سواء الموجودة أو التي تتأسس فيما بعد[٢١].

---

[١٧] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٢١–٤٢٢.

[١٨] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٥٣٠، وص ٥٧٩، وص ٥٨٤–٥٨٦، وص ٥٨٧.

[١٩] انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، د. محمد حرب، مرجع سابق، ص ١٧.

[٢٠] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص٩٩ – ١٠٠.

[٢١] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٥٨٧–٥٨٨.

ويعتبر السلطان عبد الحميد أعظم سلاطين الدولة العثمانية في عصر الانحطاط، وقد قدم الخدمات والأعمال الجليلة للدولة العثمانية في مجالات متعددة لينقذها من التفكك والانهيار، وذلك استكمالًا منه لعهد الإصلاح العثماني الذي تميز به القرن التاسع عشر، إلا أن الظروف بحكمه والتآمر الدولي والصهيوني والمعارض حال دون ذلك[٢٢].

المطلب الأول: سياساته الداخلية

كان للسلطان عبد الحميد سياساته الداخلية الخاصة والتي تدرجت وتطورت بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد من وجهة نظره، وكانت أهم خطوات هذه السياسة تتمثل فيما يلي:

-**تنظيم المجلس العمومي (البرلمان):**

في بداية حكم السلطان عبد الحميد الثاني للدولة العثمانية، استمع جلالته لمشورة نبهاء وزرائه الذين أرادوا تحويل نظام الدولة العثمانية إلى النظام الدستوري الشورى الذي يمكن به حفظ حقوق جميع رعايا الدولة، ويربط بين جميع الشعوب والملل المكونة لها، ويضمن المساواة بينهم في الحقوق والواجبات، ويُبطل به المنافسات والضغائن العرقية والدينية، لأن الجميع يشترك في نظر شؤون الدولة ووضع قوانينها[٢٣].

"وكان السلطان عبد الحميد قد عين مدحت باشا صدرًا أعظم، ثم أعلن في ٢٣ ديسمبر (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) الدستور الذي يضمن الحريات المدنية وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية[٢٤].

---

[٢٢] انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ١٨٤.

[٢٣] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٢-١٠٥.

[٢٤] انظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٠١.

وقبل هذا أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في ٥ شوال سنة ١٢٩٣هـ، الموافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٦م إرادة سنية بموجب قرار سائر الوكلاء (النظار) بتنظيم مجلس عمومي (برلمان) يكوَّن من مجلسين: أحدهما ينتخب الأهالي أعضاءه ويسمى مجلس المبعوثان (النواب)، والآخر تعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى مجلس الأعيان. كما عزل الصدر الأعظم مدحت باشا ونفاه خارج حدود الدولة العثمانية والذي لم تدم صدارته في عهد السلطان عبد الحميد أكثر من ٤٧ يوما، وذلك لسوء تصرفه سياسيا، ومناداته بالحرب مع روسيا، وصار إبراهيم أدهم باشا صدرًا أعظم بعد مدحت باشا، والذي كان رئيسا لشورى الدولة وقتها[٢٥].

وافتتح البرلمان العثماني الأول في سراي بشكطاش بعد نفي مدحت باشا، وفي عهد صدارة أدهم باشا، وذلك يوم ٤ ربيع الأول سنة ١٢٤٩هـ، الموافق ١٩ مارس سنة ١٨٧٧م[٢٦]، وافتتح السلطان عبد الحميد الجلسة الأولى بخطاب مطول، بحث فيه الامتيازات التي منحت لغير المسلمين تاريخًيا، ثم القروض والاختلالات المالية التي أعقبت حرب القرم وعصيان البوسنة والهرسك، وغيرها[٢٧]. وظل مجلس النواب مفتوحًا حتى تم تعطيله بقرار من السلطان عبد الحميد لأمد غير معلوم وذلك في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨م[٢٨]، ذلك لأن الظروف التي أحاطت بتوليه العرش، مع عدم ثقته في نزاهة وكفاءة ساسة الباب العالي، بالإضافة إلى الأزمات الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة، جعلته يتراجع

---

[٢٥] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٢–١٠٥.

[٢٦] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٥٩٠ – ٥٩٢، وانظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٥.

[٢٧] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٧٠٥.

[٢٨] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٦.

عن وعده في بداية حكمه بإقامة الحياة الدستورية، ودفعته إلى تركيز السلطة في يديه بالتدريج وإدارة الدولة بصورة فردية[٢٩].

-الإدارة الفردية للدولة:

شهد عصر السلطان عبد الحميد تطورًا ثقافيًا وعلميا وصناعيا واقتصاديا هائلًا تواكبا مع التطورات المماثلة التي حدثت في نهايات القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، ومع كثرة التحديات والفتن والاضطرابات الداخلية، والمؤامرات والتدخلات الخارجية، قرر السلطان عبد الحميد إدارة الدولة بنفسه بعد أن تم تعطيل مجلس النواب، وتميزت إدارته الفردية في البلاد بالرقابة الصارمة التي يصفها معارضوه بالاستبداد، ويصفها مؤيدوه بوجوبها لمواجهة مخاوفه من الفتن والقلاقل الداخلية، فأنشأ قسمًا للرقابة في وزارة المعارف يقوم بتطبيق مختلف قوانين الصحافة والمطبوعات، وكان التلاميذ في المدارس التابعة للبعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية تحت الرقابة الشديدة، وامتدت الرقابة إلى خارج الدولة لتشمل المنفيين الأتراك والمهاجرين من أبناء الأقليات وذلك عن طريق السفارات والقنصليات العثمانية في الخارج.

واضطر السلطان عبد الحميد في بعض الأوقات لمنع استيراد التليفونات والآلات الكاتبة، وحظر نشر بعض الكتب والمؤلفات التي يرى – من وجهة نظره الشخصية – أنها قد تتسبب في إثارة المشاكل وتحريك الفتن، ومن أجل هذه الشكوك لجأ إلى حظر استخدام بعض الكلمات مثل: "الفوضى"، "الحرية"، "الإضراب"، "الدستور"، "الثورة"، "القتل"، "الاشتراكية"، ونحوها، ولجأ إلى تطبيق ذلك بإيقاع الغرامات على الصحف ودور الطباعة التي تخالف قانون المطبوعات وقد توقف بسبب ذلك، وهذا لا يمنع لجوء هذه الدور للتحايل والتفلت من أيدي الرقباء، وبالرغم من ذلك فإن مؤيدي السلطان عبد الحميد وكذلك المنصفين من

[٢٩] انظر: د. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص ١٨٥.

المعارضين يرون أن فترة حكمه كانت من أخصب الفترات الثقافية في التاريخ العثماني[٣٠].

-إعلان الدستور وعودة البرلمان:

ظلت الحياة الدستورية معطلة أكثر من ثلاثين سنة، مما جعل أعداء السلطان عبد الحميد يصفونه بالاستبداد، ولما تأزمت الأمور وزاد نشاط الجمعيات المعارضة التي تطالب بضرورة الإصلاح وعلى رأسها جمعية الاتحاد والترقي، التي تمكنت من ضم الجيش الثالث كله إلى صفوفها في ليلة ٢٤ جمادى الآخر ١٣٢٦هـ الموافق ٢٣ يوليو ١٩٠٨م، وطالبت السلطان عبد الحميد بإعلان الدستور في ظرف ٢٤ ساعة وإلا احتل الجيشان الثاني والثالث العاصمة، فاضطر السلطان عبد الحميد إلى إصدار الدستور في الموعد المحدد، وتمت الانتخابات، وافتتح البرلمان مرة ثانية في ذي القعدة ١٣٢٦هـ/ ديسمبر ١٩٠٨م[٣١].

المطلب الثاني: مشاريعه في الدولة العثمانية

كان السلطان عبد الحميد يرى أن للشرق حضارته الإسلامية الخاصة، ومع ذلك كان يأخذ من الحضارة الغربية العلوم الحديثة التي تفيد المجتمع الإسلامي، وما يحقق الوصول إليها، ففي مجال التعليم: اهتم بإنشاء الكليات، مثل كلية العلوم، والآداب، والحقوق، والعلوم السياسية، وأكاديمية للفنون الجميلة، كما أنشأ مدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة، والغابات والتعدين والتجارة البحرية، والمعلمين العليا، وكذلك مدارس متوسطة متخصصة مثل مدارس الصم والعمي والبكم، وأقام المدارس العليا وكذلك المتوسطة المتخصصة، وهي المدارس الثانوية بمصطلحها الحديث، ولم يقتصر إنشاء الكليات والمدارس ونحوها على الأراضي

---

[٣٠] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٤٣، وص ٢٥٤-٢٥٥.

[٣١] انظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، مرجع سابق، ص ٣٧.

التركية فقط، بل امتد ليشمل الأراضي التي تقع تحت الحكم العثماني، مثل دمشق وبغداد وبيروت، وكذلك سالونيك وقونيه وغيرها، بالإضافة إلى إيفاد البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا[٣٢]، ويشهد التاريخ أن السلطان عبد الحميد قدم خدمات جليلة للدولة العثمانية مستفيدًا من الحضارة الغربية في كافة المجالات الثقافية والتعليمية والصحية والزراعية والصناعية والعسكرية وسائل الاتصال[٣٣]. ومن هذه الخدمات: أنشأ مؤسسة حديثة للمياه، وغرفًا للصناعة والزراعة والتجارة، واهتم بإقامة البلديات، وفي مجال المواصلات: مد خطوط البرق وأنشأ إدارة للبريد ومد السكك الحديدية داخل الأراضي التركية وخارجها في محيط الدولة العثمانية، وأدخل الترام، واهتم بتعزيز المواقع العسكرية في منطقة الدردنيل[٣٤].

-حركة الجامعة الإسلامية:

سار السلطان عبد الحميد الثاني على سياسة إسلامية تقوي مركزه في داخل الدولة وخارجها، وسعى لإحياء الخلافة الإسلامية وتقويتها عند ملايين المسلمين[٣٥]، ولذا كانت حركة الجامعة الإسلامية سلاحًا أيديولوجيا مهما لمقاومة الإمبريالية الغربية والحركات القومية المسيحية التي كانت تعارض السلطان عبد الحميد وتثير الفتن الداخلية، وقد وجدت هذه الحركة القبول داخليا وخارجيا، وكانت فكرتها موجودة مسبقًا إذ تشكلت في العالم الإسلامي خارج تركيا، ثم وجدت القبول بداخلها، خاصة وأنها دعت إلى وحدة المسلمين واجتماعهم على شخص الخليفة العثماني الذي أبدى العديد من أشكال ومظاهر الاهتمام

---

[٣٢] انظر: د. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص ١٨٧. وانظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

[٣٣] انظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، مرجع سابق، ص ٣٩.

[٣٤] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

[٣٥] انظر: د. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص ١٩٧.

بالمؤسسات الدينية والقائمين عليها في دول العالم الإسلامي، كما بنى سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة فيما بين عامي ١٩٠١، ١٩٠٨، برأس مال عثماني خالص بخلاف باقي السكك الحديدية الأخرى المنشأة داخل الدولة العثمانية برأس مال أوروبي. وقد أوجدت فكرة الجامعة الإسلامية العديد من الأنصار للسلطان عبد الحميد، الذي ربط أجزاء الإمبراطورية العثمانية بعضها ببعض، وصارت الخلافة تحظى بقدر كبير من الاحترام لدى رعاياها في الداخل والخارج[٣٦].

ولما شرع الإنجليز في شن حملة ضد هذا الطريق وأشاعت أن الأتراك لا قبل لهم بإنشاء خط حديد الحجاز وإنهم يسعون إلى اختلاق حجه جديدة من أجل تجريد المسلمين من أموالهم وما لبث السلطان عبد الحميد أن بث روح الوحدة الإسلامية في نفوس شعوب العالم الإسلامي كله واستقبل المسلمون إنشاء هذا الخط بحمية واهتياج عاطفي عظيم واستطاع عبد الحميد أن يلقن الإنجليز درساً قاسياً لإنجاز هذا المشروع[٣٧].

المبحث الثاني
فترة حكمه وأهم التحديات

[٣٦] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٢٥٠– ٢٥٣.

[٣٧] انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، شخصيته وسياسته، ترجمة: عبدالله أحمد إبراهيم، مكتبة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، المركز القومي للترجمة، إشراف: جابر عصفور، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

تولى السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد السلطة في ١٨ شعبان سنة ١٢٩٣هـ الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٦م[٣٨]، كان عليه مواجهة أطماع الدول الغربية في الدولة العثمانية، فاعتمد على سياسة فرق تسد، بحيث يوقع بين القوى العالمية في ذلك الوقت، فتدخل حربًا فيما بينها، والتي من شأنها تصفية قوى هذه الدول، ليتعادل ميزان القوى العالمية، وفي نفس الوقت كان يسعى لتجميع القوى الإسلامية المتفرقة ليجعل منها قوة عظمى يواجه بها أطماع الدول الكبرى[٣٩].

وعلى هذا فقد كانت التحديات التي تواجه السلطان عبد الحميد في فترة حكمه تتمثل في التحديات الداخلية من جهة، والخارجية من جهة أخرى، وكلها تسعى سعيًا حثيثًا لتفكيك الدولة وإضعافها، وإنهاء الخلافة العثمانية، وإقامة دولة جديدة ناشئة تعتمد على المنهج الأوروبي في إدارتها بعيدًا عن المنهج الإسلامي.

المطلب الأول: التحديات الداخلية

تولى السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد حكم الدولة العثمانية التي كانت تمر بأزمة مالية خطيرة في تلك الفترة[٤٠]، حيث تجاوزت الديون الخارجية التي

---

[٣٨] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٥٨٧.

[٣٩] انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، د. محمد حرب، مرجع سابق، ص ١٨.

[٤٠] تعرضت الدولة العثمانية لأزمة مالية شديدة بعد حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)، وانتهت بمعاهدة باريس (٢٥ فبراير – ٣٠ مارس ١٨٥٦م)، وقد كانت هذه الحرب في صالح الدولة العلية، ولم يكن القصد منها سوى إضعاف روسيا ومنع توغلها في أراضي الدولة العثمانية، وبعد انتهاء الحرب سعت فرنسا والمملة المتحدة لإضعاف الدولة العثمانية حتى لا تقوى على معارضة تلك الدول وتبقى حاجزًا بين روسيا والبحر الأبيض المتوسط ليس إلا. وتوالت الأحداث السياسية في نواحي الدولة العلية وخاصة في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام التي احتلتها فرنسا، وبعد وفاة السلطان عبد المجيد وتولي السلطان عبد العزيز مقاليد الحكم، وسعيه لإصلاح أحوال الدولة العلية ومعاملة جميع الرعايا على السواء بدون النظر لجنسهم أو دينهم ليقطع على دول أوربا أي سبيل للتدخل في شؤون الدولة بحجة تقرير المساواة، وكل هذا جر على الدولة مصاريف باهظة اضطرتها للاستدانة من أوربا للقيام بأعباء حرب القرم وما تلاها، ثم استغرقت المصاريف كل القرض، فاستدانت الدولة مجددًا، واستمر الحال على هذا المنوال، وكل سنة

استدانتها الدولة بين أعوام ١٨٥٤–١٨٧٤م والفوائد التي ترتبت عليها نصف إيرادات الدولة العلية، هذا بخلاف القروض الداخلية[٤١].

وكان على السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حكمه مواجهة كل من:

–نفوذ الباب العالي والمشروطية الأولى:

نظام الباب العالي هو نظام مستحدث على الدولة العثمانية آنذاك، أتت به حركة التنظيمات التي بدأها السلطان عبد المجيد، ويشبه مجلس الوزراء الآن، وأما إعلان المشروطية الأولى والذي يسمى كذلك: مشروطية ٩٣[٤٢] أو حكم التاج المقيد، فكان في ٧ ذو الحجة ١٢٩٦هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م، وذلك بإصرار من مدحت باشا ومؤيديه، ونُشر القانون الأساسي، وهو الدستور المكتوب الأول في الدولة، واستمر العمل به حتى سنة ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م[٤٣].

تزداد الديون الخارجية والقوائم الداخلية، حتى ولي فؤاد باشا منصب الصدارة وأقنع السلطان عبد العزيز بضرورة إبطال القوائم وتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة، وأصدر السلطان فرمانًا في ١٧ يونيو سنة ١٨٦٢ بسحب القوائم بأجمعها وتصفية جميع الديون السائرة ودفع بدل القوائم نقودًا ذهبية أو فضية بقيمة أربعين في المائة وسهامًا جديدة بقيمة الستين في المائة الباقية، ولتحقيق هذا اقترضت الدولة ثمانية ملايين جنيه ًا انجليزيا لم تف بالمطلوب، فاقترضت ثمانية أخرى بواسطة البنك العثماني الذي تأسس في هذه الغضون، ومع كثرة مصاريف الإصلاحات الداخلية، تكاثرت وتراكمت الديون حتى صارت حلًا ثقيلًا على ميزانية الدولة، وتوالت الأحداث والمحاولات حتى تمكنت الدولة من اتقاء شر إفلاسها باقتراض ما يلزمها من البنوك بدون إصدار أسهم عمومية، وفي مقابل ذلك يدفع البنك العثماني فوائد الديون المقيدة في السجل العمومي كل ثلاثة أشهر وتتنازل له الدولة لوفائها عن بعض الإيرادات المعينة، ولكن اشتعال نيران الفتن الداخلية منع استقرار الدولة ماديا. انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٤٩١–٥٢٩، ص ٥٣٠–٥٤٥.

[٤١] انظر: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، الأميرة عائشة عثمان أوغلي، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ١٣.

[٤٢] وذلك حسب السنة الرومية، وكذلك تسمى الحرب مع روسيا في تلك السنة: حرب ٩٣ والتي انتهت بهزيمة شنيعة للدولة العثمانية. انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٢٨–٤٢٩.

[٤٣] انظر: المرجع السابق، ص ٤٢٩.

وقد استمر العمل بالمشروطية الأولى منذ تاريخ إعلان الدستور لمدة سنة وشهر و ٢١ يومًا، وظل مجلس النواب مفتوحًا حتى تم تعطيله بقرار من السلطان عبد الحميد لأمد غير معلوم وذلك في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨م[٤٤]، وتم ضبط كثير من أعضائه ونفيهم خارج البلاد بسبب تنديدهم بأعمال الحكومة واعتراضهم على إجراءاتها، كما تعاقبت الوزارات بشكل كبير نتيجة للظروف التي كانت تمر بها الدولة في ذلك الوقت[٤٥].

واختار السلطان عبد الحميد أن يقوم بالإدارة الفردية والحكم الشخصي للدولة، وقد استمر الحكم بهذه الطريقة مدة ثلاثين سنة، ويصف معارضوه هذا الدور بدور الاستبداد، وقد لجأ السلطان عبد الحميد لهذه الطريقة في إدارة البلاد لما رأى ببصيرته وحكمته السياسية أن الدولة آيلة للسقوط أو على الأقل الاضمحلال خاصة بعد مناقشة المجلس تشكيل دول مستقلة مثل أرمينيا وبونتس وكردستان، وأيد بسمارك – رجل الدولة الألماني – عمل السلطان عبد الحميد في ذاك الوقت، وقال: "إن ضرر المجلس أعظم من نفعه في دولة لا تتشكل من شعب واحد"[٤٦].

-<u>خطر جماعة "تركيا الفتاة":</u>

تأسست هذه الجمعية بإستانبول في شهر محرم ١٢٨٢هـ/ حزيران ١٨٦٥م على يد شباب يرون حركات الإصلاح لرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا شيئًا قليلًا، ويطالبون "بتأورب" أكثر بتأثير حصول أكثرهم على العلوم في الدول الأوروبية... تجمعهم سمة مشتركة هي أنهم أبناء باشوات وأغنياء وينتمون إلى طبقة اجتماعية راقية، ويرددون كلمات الحرية والإصلاحات بلا كلل أو ملل... وتحولت الجمعية إلى حركة معارضة سياسية تماما بانتماء سليمان باشا،

---

[٤٤] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٦.

[٤٥] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٤٥٥.

[٤٦] الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٢٩.

قائد المدرسة الحربية، ومصطفى فاضل باشا، الناقم على الدولة العثمانية لتفويتها فرصة الخديوية عليه"[٤٧].

-ثورة الأرمن:

عاش الأرمن في الدولة العثمانية حتى حرب ٩٣ في رفاهية وسعادة وثراء، فقد كانوا يزاولون التجارة والصيرفة وصياغة الذهب، وعاشوا في الدولة لعثمانية كالأمراء وكان تعدادهم يقارب المليون، وكانت علاقات الود متبادلة بينهم وبين الأتراك، إلى أن تدخل الغرب بخططهم لإفساد هذه العلاقة الطيبة، فطلبت المادة ٦١ من معاهدة برلين إجراء إصلاحات لصالح الأرمن في ٦ ولايات[٤٨]، وقد رفض السلطان عبد الحميد تطبيق هذه المادة السخيفة على حد قوله[٤٩]، وتطورت الأحداث داخليا وخارجيا، مما أدى إلى قيام ثورة الأرمن، الذين اجترؤوا بعد معاهدة برلين، وقاموا بالعديد من المذابح وأعمال القتل والتخريب شرق

---

[٤٧] المرجع السابق، ص ٤٢٤.

[٤٨] بعد انتهاء حرب القرم وتوقيع معاهدة باريس (١٨٥٦م)، سعت فرنسا والمملكة المتحدة لإيجاد الأسباب الموجبة لضعف الدولة العثمانية حتى لا تقوى على معارضتها، وفي ذات الوقت توقف الزحف الروسي نحو البحر الأبيض المتوسط، ولذلك ساعدت تلك الدول ولايتي الأفلاق والبغدان على تكوين حكومة الإمارات المتحدة شبه المستقلة بانضمامهما واتحادهما معًا، لها أمير واحد وأنشئ لها مجلس نواب، وذلك كله تحت حماية جميع الدول، بالوفاق الذي أُمضي في باريس في ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨م، وتم انتخاب البرنس كوزا أميرًا لهذه الحكومة، واعترف الباب العالي بهذا الانتخاب حسمًا للنزاع، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذه الدول أوجدت مشاكل كثيرة في بلاد الصرب والجبل الأسود لتسعى كذلك إلى الاستقلال التام عن الدولة العلية، ومن هنا تصبح هذه الولايات بمثابة موانع وعقبات بين الدولة العثمانية وممالك أوربا، التي زرعت بذور الفتنة في بلاد البوسنة والهرسك لتضطرب وتثور وتطالب بامتيازات كبلاد الصرب والجبل الأسود، وقد تدخلت تلك الدول في الشؤون الداخلية للدولة العلية ومنعتها من محاربة الثائرين بتهديدها بقطع العلائق السياسية ونزول سفرائهم إلى مراكبهم، بل وإرسال بعض السفن الحربية لتقرير مطالب الثائرين، مما جعل موقف الدولة العثمانية حرجًا جدًا أمام تلك الدول المسيحية المتألبة عليها لإضعافها سياسيًا، ومع كثرة تدخلها في الشؤون الداخلية لها، حتى صار سفراء تلك الدول وكأنهم شركاء لوزراء الدولة في جميع الأعمال. انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٥٢٣-٥٢٤.

[٤٩] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٢٩.

الأناضول سعيًا لتشكيل دولة أرمينيا المستقلة، وقد قمع السلطان عبد الحميد هذه الاضطرابات بقوات أطلق عليها اسم "الأفواج الحميدية"، واتخذ تدابير مشددة ضد العصيان الأرميني، كما منع الدول الأجنبية من التدخل في هذه القضية، فأطلق عليه الأرمن ومن بعدهم (الاتحاد والترقي) وأنصارهم، لقب: السلطان الأحمر، الذي ما زال معارضوه يلقبونه به[٥٠]، وأبرزهم اليهود والماسونيين وأنصار الغرب ومعتنقي مبادئه من الجمعيات المعارضة[٥١].

وعلى الرغم من الشدة التي واجه به السلطان عبد الحميد ثورة الأرمن، إلا أنهم لم يتوقفوا عن إثارة الفتن والاضطرابات في الدولة، واستغلال كل نقطة ضعف لقلقلة عرش السلطنة، وقد اجتمعت عصابات الأرمن وممثلو المنظمات الصهيونية العالمية على إزالة عبد الحميد الثاني من الحكم، لأنه كان يقف عائقًا وحاجزًا أمام دعواتهما، فاتفقوا بعد اضطرابات مقدونيا[٥٢] مع الإرهابي البلجيكي يوريس لقتله بقنبلة انفجرت يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ الموافق ٢١ يوليو ١٩٠٥م بعد الصلاة، ولكن الله أراد له النجاة من محاولة الاغتيال الفاشلة.

وبعد إعلان بلغاريا والبوسنة والهرسك انفصالها عن الدولة العثمانية، تمت إعادة افتتاح مجلس المبعوثان في ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ الموافق ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨م، والذي بلغ فيه عدد الأعضاء الترك ١٤٠ عضوًا من أصل ٢٤٠، استمرت الأقليات بالدولة في العصيان والتمرد بالرغم من زيادة الديمقراطية فيها، وصدور العفو عن الضرب والبلغار والأرمن وغيرهم من الأقليات الذين

---

[٥٠] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٣٠.

[٥١] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ٢٣٤.

[٥٢] اندلعت اضطرابات مقدونيا في ١٣٢٠-١٣٢١هـ/ ١٩٠٢-١٩٠٣م فيما تسمى الولايات الثلاث (قوسوة ومركزها اسكوب، وسلانيك ومناستر)، وتبعها تدخل الدول العظمى بالضغط على الدولة العثمانية. انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٣٠.

ذبحوا المسلمين، وكان للأرمن دور كبير في واقعة ٣١ مارس والتي أدت إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني(٥٣).

ويذكر السلطان في شكاوى الأرمن أنه شيء مضحك أن نتهم في تعذيب الأرمن واستغلالهم ولو جال المرء بنظره في تاريخ إمبراطوريتنا لثبت لديه أن الأرمن كانوا دائماً أغنياء والذين يعرفون حقائق الأمور يؤكدون تفوق الأرمن مالياً على رعايانا المسلمين لقد تقلد الأرمن في جميع العهود أعلى المراكز الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير الأعظم، ولا أكون مبالغاً أبداً إذا قلت إن ثلث الموظفين هم من الأرمن وفيما عدا ذلك ليس على الأرمن الخدمة العسكرية شأنهم شأن باقي الرعايا والبدل النقدي الذين يؤدونه رمزي(٥٤).

-**<u>الاتحاد والترقي:</u>** جمعية الاتحاد والترقي هي امتداد لجمعية تركيا الفتاة، ولذا يطلق المؤرخون اسم تركيا الفتاة على بدايات الحركة حيث كان معظم نشاطها في أوربا، بينما يطلق عليها اسم الاتحاد والترقي عندما انتقل نشاطها إلى داخل الدولة وساهمت بشكل أساسي في خلع السلطان عبد الحميد الثاني(٥٥).

وكان أنصار جماعة الاتحاد والترقي المعارضة لعبد الحميد الثاني يصفون حكم السلطان عبد الحميد بالاستبداد، وذلك بعدما ألغى مجلس النواب لأسباب كان يرى أنها تتعلق بأسباب إنقاذ الدولة العثمانية من السقوط والتمزق، مما جعله يدير الدولة إدارة انفرادية على مدى ثلاثين عامًا متواصلة، إلا أن هذا الاستبداد كما يراه المنصفون لم يكن استبدادًا مطلقًا، وإنما هو استبداد خفيف وجزئي وضروري، ويؤكد ذلك أن السلطة التشريعية في تلك الحقبة الزمانية قد مارستها المجالس المتخصصة كما كان العمل عليه قبل إعلان القانون الأساس في ١٣٩٢هـ/ ١٨٧٦م بحسب شروط ومميزات المشروطية الأولى، وأما السلطة

---

(٥٣) انظر: المرجع السابق، ص ٤٣١.

(٥٤) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ١٨٩١–١٩٠٨.

(٥٥) انظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، مرجع سابق، ص ٤٠.

التنفيذية فقد كانت في يد السلطان عبد الحميد الذي هيمن على مجلس الوزراء وجهاز الأمن فيما يعرف بالتشكيلات الخفية التي تأسست لحماية الدولة، وهذا كله جعل أنصار الاتحاد والترقي يصفون نظام حكم السلطان عبد الحميد بالمستبد، إلا أن المنصفين يرون أن هذا النظام لم يلغي الحريات والحقوق بصورة مطلقة وانما الأحداث والوقائع والظروف وقتها هي التي أدت إلى اتخاذ تلك الإجراءات المشددة[٥٦]. ويرجع بعض الباحثين بداية ظهور تلك الجمعية إلى عهد السلطان عبد العزيز، حيث قامت جماعة الأحرار المتأثرة بالأفكار الأوروبية[٥٧].

تأسست هذه الجمعية كجمعية سرية معارضة لحكم السلطان عبد الحميد سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، على يد طلاب في المدرسة الحربية ومدرسة الطب العسكري، وتفككت هذه الجمعية سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م وهرب أعضاؤها إلى باريس حيث تابعوا نشاطهم هناك بعد أن رحب بهم الغرب وتحالفوا معهم وآزروهم في تشويه صورة السلطان عبد الحميد والافتراء عليه بهتاًنا وزوراً، حتى أن رئيسهم في باريس أحمد رضا بك اعترف في مذكراته فيما بعد بندمه على ما كتبه ضد عبد الحميد في الصحف الأوروبية[٥٨].

يقول أحمد رضا معترفاً بحق السلطان عبد الحميد: (عيب عيب أنه كان سلطاناً وخليفة ٣٢ عاماً أن الهجوم غير اللائق الذي يتعرض له لأمر يخجلنا ولما كنا نعلم أن قسماً كبيراً من ذلك الذي يقال أو يكتب ويحاك ضد السلطان

[٥٦] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٤١-٤٤٢.

[٥٧] انظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، مرجع سابق، ص ٤١.

[٥٨] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٥٢.

عبد الحميد محض كذب وافتراء فكيف لنا نتحمل ذلك؟ سنكون نحن غداً المخاطبين بتلك الافتراءات صدقوني)[٥٩].

[٥٩] السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه، دراسة من خلال الوثائق، تأليف عمر فاروق يلمز، ترجمة طارق عبد الجليل، مراجعة وتقديم أ.د. صفصافي أحمد المرسي، دار النشر عثمانلي، اسطنبول، توزيع دار النيل، مصر، الطبعة الثالثة، حقوق الطبع محفوظة.

المطلب الثاني: التحديات الخارجية

عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم، كانت الدولة العثمانية صاحبة لقب "الرجل المريض" تمر بمرحلة من أصعب مراحلها التاريخية، واتفقت الدول الغربية على الإجهاز عليها واقتسام تركتها[٦٠]، وازدادت الضغوط الخارجية الواقعة على الدولة العثمانية، وأخذت أبعادًا خطيرة في الوقت الذي كانت فيه أوربا تبحث عن توازن جديد للقوى منذ أن هزمت بروسيا فرنسا وقام الاتحاد الألماني سنة ١٨٧١ م، مما أحدث خللًا واضطرابًا ملموسًا في ميزان القوى الأوروبي[٦١]. وتمثلت أهم التحديات الخارجية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني فيما يلي:

-مؤتمر ومعاهدة برلين (١٨٧٨) والتدخلات الخارجية:

استنزفت الحرب مع روسيا التي تعددت أسبابها سواء داخليا أو خارجيا، قوة الدولة العثمانية التي قاومت الجيوش الروسية بصلابة بالرغم من أن أعدادها تفوق إعداد القوات العثمانية، وقد أدى اجتياز الروس السهل خلال ٤ أيام من رومانيا إلى الطرف المقابل في بلغاريا والذي أدهش العالم إلى خسارة الدولة العثمانية من البداية، إلا أن القوات الروسية وصلت منهكة حيث كانت الأساطيل البريطانية راسية قبالة العاصمة العثمانية لتمنع احتلال الجيش الروسي لها، وهنا طلبت الدولة العثمانية الصلح، وقضت معاهدة سان ستيفانو (مارس ١٨٧٨) باستقلال إمارة الجبل الأسود وضم بعض أراضي البوسنة وميناء أنتيفاري على ساحل بحر الإدرياتيك لها، وكان من بنود هذه المعاهدة كذلك استقلال الصرب التي ضمت إليها مقاطعتا نيش ومتروفزتا، وحصلت رومانيا على استقلالها،

---

[٦٠] انظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، دار القاسم للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ص ٢٠.

[٦١] انظر: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، الأميرة عائشة عثمان أوغلي، مرجع سابق، ص ٧.

وتقرر قيام بلغاريا الكبرى الممتدة من نهر الدانوب إلى بحر إيجة، على أن تتمتع بالاستقلال الذاتي وتقوم على شؤونها حكومة مسيحية تحت حراسة ميليشيا قومية.

تم الاتفاق على قرار بوقف إطلاق النار في ٣٠ يناير سنة ١٨٧٨م وذلك بعد احتلال الروس مدينة ادرنه ووقعت معاهدة الصلح في مركز قيادة الجيش الروسي في آياستفنوس بتاريخ ٣ مارس ١٨٧٨م ولم يكن للدولة العثمانية أي قوة في المقاومة بموجب شروط الاتفاقية التي فرضها عليهم الروس[٦٢].

وكان السلطان عبد الحميد يعيش على أمل استرداد جزء من الولايات بعد حين بموجب اتفاقية آياستفنوس، وقد أحدثت اتفاقية الصلح التي أتمها السلطان بمهارته السياسية تنافساً دولياً ومن أهم بنود الاتفاقية إنها حرضت الدول الكبرى على روسيا[٦٣].

ثم تم التوقيع على معاهدة برلين المعدلة لمعاهدة آياستفنوس وذلك في ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨م وكانت البنود الجديدة في هذه المعاهدة تقديم بما يأتي يتم أخذ مقدونيا من بلغاريا ثم ترد إلى تركيا ويصبح الجزء الشرقي لبلغاريا تحت إدارة الحكم المسيحي وتسمى الروملي الشرقية اما الجزء الثالث من بلغاريا فيظل تحت إمارة (البلغار) ويكون دولة مستقلة تدفع الضريبة للدولة العثمانية، أما البوسنة والهرسك فستتولى إدارتها كل من النمسا والمجر[٦٤]، لا ريب أن معاهدة برلين من أهم الأسباب التي مهدت السبيل إلى تصفية الإمبراطورية العثمانية كما إنها دمرت السلطان عبدالحميد وسلبت الأراضي العثمانية على آثارها.

وبذلك تكون الحرب قد انتهت بانتصار الروس، وتم بها تفتيت أملاك الدولة في أوربا، وأدى ازدياد النفوذ الروسي في البلقان لاستياء بريطانيا التي

---

[٦٢] انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، شخصيته وسياسته، تأليف سليمان قوجه باش وترجمة عبد الله أحمد إبراهيم– مكتبة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، المركز القومي للترجمة، إشراف جابر عصفور الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص ١٣١.

[٦٣] انظر: السابق، ص ١٣١–١٣٢.

[٦٤] انظر: السابق، ص ١٣٨.

حصلت من السلطات العثمانية في يونيو ١٨٧٨ على حق احتلال جزيرة قبرص وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية، مع تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة في آسيا ضد التهديدات الروسية، مقابل تعهد السلطان عبد الحميد بإدخال الإصلاحات اللازمة في أملاك الدولة الآسيوية بالتشاور مع بريطانيا، التي تعهدت بالجلاء عن قبرص في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلوها في آسيا[٦٥].

واشتملت المعاهدة على ٦٤ مادة، يرى المؤرخون أن الدولة العثمانية لم تربح منها شيئًا[٦٦]، وكان مؤتمر برلين الناتج عن تدهور الإمبراطورية العثمانية التي أجبرت على التنازل عن مساحات شاسعة من أملاكها، والذي دعا إليه المستشار الألماني أوتوفون بزمارك، ليس لأجل حماية مصالح الدولة العلية، وإنما لأجل حماية السلام الأوروبي الذي تعرض لخطر نشوب حرب أوربية بعد تصدي بريطانيا لروسيا وحمايتها للدولة العثمانية[٦٧].

-الصهيونية العالمية:

عقد اليهود مؤتمرهم الصهيوني الأول في نهايات القرن التاسع عشر، وسعوا من بعده لجمع لإقامة الدولة اليهودية، وسعوا لكسب التأييد العالمي لإقامة دولتهم على الأراضي الفلسطينية، ولأجل هذا قابل رئيسهم مؤسس الصهيونية العالمية/ ثيودور هرتزل، السلطان عبد الحميد الثاني في ١٩ مايو ١٩٠١م بعد وساطة من سفير النمسا، وعبر له عن رغبة اليهود في الاستيطان في فلسطين، مقابل إخلاص اليهود للدولة العثمانية ودفع ملايين الليرات الذهبية للخزينة، وقد رفض السلطان عبد الحميد هذا العرض بصورة قطعية ونهائية وطرده ومن معه، وهو

---

[٦٥] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٧ – ١١٤، وانظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

[٦٦] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٦٩٨.

[٦٧] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٢٤٥-٢٤٦.

على يقين تام بأنه سيواجه من اليهود أشد العداء، وهؤلاء قد قبلت الدولة العثمانية الفارين منهم من أسبانيا والدول الأوروبية في أراضيها في أواخر القرن الخامس عشر، وعلى هذا فإن السلطان عبد الحميد صار في مواجهة داخلية مع غضب اليهود، بالإضافة إلى العداء الأرمني[٦٨]. وقد خلد التاريخ مقولة السلطان عبد الحميد في رده على طلب اليهود باستيطان فلسطين: "لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي"[٦٩].

كانت المسألة (الفلسطينية) من أهم مشاكل عصر السلطان عبد الحميد وذلك من أجل إقامة دولة لهم على الأراضي الفلسطينية فيما أسموه بأرض الميعاد[٧٠]، ولم يقبل السلطان عبد الحميد مقترحات "تيدور هرتزل" الذي كان على رأس الحركة الصهيونية قائلاً "أنا لن ابيع شبراً واحداً من أراضي فلسطين فهي ليست ملكي بل هي ملك أمتي"[٧١].

ولا شك أن السلطان عبد الحميد قد أدرك آنذاك مخطط دولة اليهود التي عزموا على أقامتها وكان يدرك أن اليهود قد انتشروا بواسطة المؤسسات الصهيونية والماسونية وقد اشتركوا جميعهم في خلعه عن العرش[٧٢].

---

[٦٨] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٤٨.

[٦٩] انظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٤٥.

[٧٠] انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، شخصيته وسياسته، سليمان قوجه باش، مرجع سابق، ص ١٣٢.

[٧١] السابق، ص ١٣٣.

[٧٢] انظر: السابق، ص ١٣٥.

Doi : 10.12816/0053442

المبحث الثالث

أحداث النهاية

واجه السلطان عبد الحميد الكثير من المصاعب الداخلية والخارجية، والتي أدت إلى ازدياد النقد الداخلي لحكم السلطان الذي تمسك بالسلطة المطلقة في الدولة من جهة، كما أدت إلى ازدياد عمليات الاعتقال والسجن والنفي خارج البلاد للمعارضين ومثيري الفتن من جهة أخرى[٧٣].

المطلب الأول: خلع السلطان عبد الحميد الثاني

أشعل الأرمن نار الفتنة في إستانبول، وأثاروا الاضطرابات والقلاقل التي اتهم بها المسلمون، وانتهز الانجليز وغيرهم من أعداء الدولة العثمانية هذه الأحداث، والتي أدت إلى تحرك طوابير من الجيش الثالث إلى إستانبول في حركة عصيان وتمرد على الدولة انضم لها العوام من الناس، واستغل الاتحاديون هذه الأحداث للتخلص من عبد الحميد الثاني وقمع رجال الدين من جهة، وسحق جيش حركة العصيان بطريقة دموية من جهة أخرى[٧٤].

وقد قامت حامية الأستانة بإيعاز من أركان السراي، ولخصت مطالبها في شكل ديني لتضمن انضمام أهالي الأستانة لهم، وكانت هذه المطالب:

١–إحياء الشريعة.

٢–عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية.

٣–طرد أحمد رضا بك وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك وطلعت وإسماعيل حقي بك... إلخ من المجلس.

٤–عزل محمود مختار باشا لأنه لم يشترك معهم.

---

[٧٣] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ٢٥٩.

[٧٤] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٣٣.

٥-العفو عنهم.

ولكن السلطان عبد الحميد لم يستسلم بسهولة لتدخل الجيش الذي دخل الأستانة تحت قيادة محمود شكوت باشا، فأطلقت القنابل على حامية الباب العالي والنادي العسكري، واستولى الجيش عليهما[٧٥].

هذا وكان قد دعا طلعت بك الاتحادي مجلس المبعوثين إلى الاجتماع، واستصدر قرار الخلع في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ أبريل ١٩٠٩م تحت تهديد السلاح، وقامت لجنة مكونة من أربعة أشخاص ليس فيهم تركي مسلم واحد، بإبلاغ السلطان عبد الحميد الثاني بقرار الخلع، وهؤلاء هم: اليهودي عمانوئيل قره صو، والحركي الأرميني أرام أفندي، والألباني (الأرناؤوط) أسعد طوبطاني باشا، والجورجي عارف حكمت باشا[٧٦].

وكان قرار الخلع قد عُرض على شيخ الإسلام ضياء الدين أفندي ليأخذ الصفة القانونية بتصديقه له الذي تمَّ وهو محاط بأفواه البنادق[٧٧]، وتم خلع السلطان عبد الحميد الثاني، بعد أن حكم الدولة العثمانية أكثر من ٣٣ سنة أخَّر بها سقوط دولته ثلث قرن من الزمان، وتولى السلطان رشاد السلطنة مكانه[٧٨].

---

[٧٥] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٧٠٧ – ٧٠٨.

[٧٦] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٣٣.

[٧٧] انظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.

[٧٨] محمد رشاد الخامس، السلطان الخامس والثلاثون، ولد سنة ١٨٤٤م. انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٧٠٨ – ٧٠٩، وانظر: كيف سقطت الدولة العثمانية، سليمان بن صالح الخراشي، مرجع سابق، ص ٣٩.

المطلب الثاني: النفي من إستانبول والعودة إليها ثم وفاته

بعد خلع السلطان عبد الحميد عن العرش في السابع والعشرين من أبريل عام ١٩٠٩م، تم نفيه إلى سلانيك، ثم انتقل إلى قصر بكلربكي في إستانبول، وبقي فيه حتى حضرته الوفاة في العاشر من فبراير سنة ١٩١٨م[٧٩].

وكان السلطان عبد الحميد قد رفض نفيه إلى سلانيك، وقال للهيئة التي جاءته بأمر النفي: "إنني أريد الموت هنا، فهنا قبر أجدادي، وإن نقلكم لي يخالف الدستور"، وتم رفض طلبه بشدة، ونُفي مع زوجاته وأبنائه وبناته ومصاحبيه من الخدم والعمال وغيرهم إلى سلانيك التي بقي فيها إلى أن اشتعلت حرب البلقان، وتعرضت سلانيك للخطر، فتقرر نقل عبد الحميد إلى إستانبول[٨٠].

المطلب الثالث: السلطان عبد الحميد الثاني بين مطرقة مؤيديه وسندان معارضيه

كما هي السنة الكونية؛ فإنه لا يوجد مخلوق على هذه الأرض إلا ويختلف عليه الناس، بين من يرى فيه الصلاح والإصلاح، والخير والإحسان، ومن يرى فيه الفساد والإفساد، والشر واتِّباع الشيطان، وهكذا كان حال السلطان عبد الحميد الثاني، في حياته، وبعد وفاته، فنجد فيمن أرخ للدولة العثمانية من ينتصر له ويرى فيه الإصلاح والبطولة، وخاصة المؤرخون الإسلاميون، الذين يقدرون خدماته للدولة الإسلامية مدة حكمه التي امتدت ثلاثة وثلاثين عامًا بالرغم من ضعف الدولة العثمانية في تلك الفترة العصيبة من حياة الدولة العثمانية[٨١] والتي

---

[٧٩] انظر: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، الأميرة عائشة عثمان أوغلي، مرجع سابق، ص ١٣.

[٨٠] انظر: المرجع السابق، ص ٢٤٤–٣٠٩.

[٨١] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، مرجع سابق، ص ٢٦١.

كانت تعتبر فترة احتضارها، التي تمادى فيها أعداء الدولة العثمانية وطمعوا في اقتسام تركة الرجل المريض[٨٢].

وأما أعداؤه ممن يؤيدون العلمانية، ويرون أن الإصلاح لا يكون إلا بنبذ القوانين الإسلامية، واتباع النظم الغربية بحذافيرها، وهم المؤيدون لإنهاء الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية العلية، واستبدالها بالجمهورية التركية ذات الطابع الغربي الحديث، فهؤلاء يرون أن السلطان عبد الحميد الثاني هو العدو الأول لنهضة تركيا الحديثة، ونراهم في كتب التاريخ ينسبون إليه الظلم والاستبداد وديكتاتورية الحكم والإساءة إلى الشعب وخاصة طائفة الأرمن، وقد انقاد هؤلاء للرأي العام الأوربي الذي انحاز في تلك الفترة ضد السلطان عبد الحميد، وذلك بسبب مواقفه التي سجلها له التاريخ في المسألة اليهودية، وهاجمته الصحافة، وألبت عليه الرأي العام فيما يتعلق بقضية الأرمن[٨٣].

وقد كان الرأي العام في أوربا يرى في الدولة العثمانية نموذج الظلم والاستبداد مع الجهل والتخلف، على سبيل المثال، نجد المؤرخ (إي إتش غومبريتش) وهو يتحدث عن العصر الجديد في القرن السابع عشر، ويصف فيه سيلًا من عصر الحصار التركي – على حد قوله– وبعد أن وصف طريقة كلامه التي يستخدم فيها الكلمات اللاتينية والفرنسية، وبراعته في اختيار كلمات عباراته، وما يدخله فيها من اقتباسات لاتينية يعجز الكثيرون عن فهمها، مع ظاهره الوقور المحترم، إلا أن المؤرخ يرى أن هذا السيد يتمتع يخضع لشهواته ونزواته، وأنه بالرغم من ثرائه البادي في ثيابه الفاخرة، المزينة والمعطرة، فأنه يموج برائحة كريهة، حيث إنه – من وجهة نظر المؤرخ – نادرًا ما كان يغتسل!!! [٨٤]

---

[٨٢] انظر: صحوة الرجل المريض (السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية)، موفق بني المرجة، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، (د. ط)، ١٩٨٤م، ص ٤٧.

[٨٣] انظر: الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٣٠.

[٨٤] انظر: مختصر تاريخ العالم، إي إتش غومبريتش، ترجمة: د. ابتهال الخطيب، عالم المعرفة، (د. ط)، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص ٢٦٥.

ثم يبدأ المؤرخ في سرد آراء السيد التركي والذي يعبر بها عن وجهة نظر الأوروبيين بصفة عامة للسيد التركي في تلك الفترة، سواء كان هذا السيد في أعلى مناصب الدولة التركية، أو أدناها، فيقول: "غير أن شيئًا لا يمكن أن يعدك للصدمة التي ستصيبك فور أن تبدأ بسماع آرائه: لا بد من ضرب كل الأطفال، الفتيات الصغيرات (لسن أكثر من طفلات في الواقع) لا بد أن يتزوجن (ومن رجال بالكاد يعرفنهم)، قدر الفلاح هو أن يكدح وألا يشتكي، لا بد من جلد المتسولين والمتشردين ثم وضعهم في الأصفاد وعرضهم في السوق ليسخر منهم الجميع، يجب إعدام اللصوص وتقطيع القتلة إلى قطع أمام الناس، يجب حرق الساحرات وغيرهن من المشعوذين الذين يغزون البلد، يجب التضييق على الناس أصحاب العقائد المختلفة، بحيث يُعاملون كمنبوذين أو يُلقى بهم في الأقبية المظلمة..." [٨٥].

كان هذا رأيه في السيد التركي الفظ الأخرق الذي كانت له الغلبة في تلك الحقبة التاريخية، وقد سرت هذه الأفكار في اعتقاد الأوروبيين نحو السلطة التركية التي كانت تهدد أوربا من حين لآخر، حتى سقطت الدولة العثمانية بخلع السلطان عبد الحميد الثاني، الذي نال من أوصاف الظلم والاستبداد والديكتاتورية ما فاق ما تم ذكره آنفًا، وقد كان هناك اتجاه سلكته الكثير من كتب التاريخ، "وهو التنديد بكل ما هو عثماني، والإشادة بسائر خصوم الدولة العثمانية حتى لو أكدت الأحداث والنتائج ضحالة فهمهم السياسي وخطل تصرفاتهم، وما تحملته الأمة من جراء أخطائهم...."، ومنها: "كتاب (تاريخ الدولة العلية) لمؤلفه محمد فريد بك، الذي صدر في عهد السلطان محمد رشاد الخامس، وتضمن تنديدًا مهذبًا بعهد عبد الحميد دون أن يغفل نهائيًا عن ذكر بعض إنجازاته"[٨٦].

---

[٨٥] المرجع السابق، ص ٢٦٦.

[٨٦] صحوة الرجل المريض (السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية)، موفق بني المرجة، مرجع سابق، ص ٢٣.

وكذلك تحامل لورانس العرب في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) على الدولة التركية عمومًا، ووَصَفَها بالجائرة، وعلى السلطان عبد الحميد خصوصًا وأظهره بمظهر الحاكم المستبد، فيقول: "صحيح أن العرب فقدوا في ظل الحكم التركي الجائر معناهم الجغرافي وذكرياتهم العنصرية والسياسية والتاريخية، ولكنهم تمسكوا بلغتهم... ثم جاءت الثورة العثمانية وتبعها سقوط عبد الحميد وانتصار جماعة "تركيا الفتاة" فانفتحت أمام العرب آفاق جديدة، وذلك لأن حركة جماعة "تركيا الفتاة" كانت ثورة على المفهوم المألوف للإسلام وعلى المرامي الإسلامية العالمية الجامعة عند السلطان عبد الحميد الذي كان يسعى لأن يكون الزعيم الديني والدنيوي المطلق للمسلمين جميعًا، لقد رمت الثورة بالسلطان في السجن، وعملت لإقامة دولة على أسس دستورية حديثة"[٨٧].

وبالرغم من كثرة المؤلفات عن الدولة العثمانية وسلاطينها بوجه عام، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني هو أكثر سلطان عثماني نال حظه من التأليف والكتابة عنه بوجه خاص، وقد تنوعت المؤلفات عنه بين مؤيد ومعارض، وخاصة بعد أن تم خلعه عن عرش السلطنة العثمانية وكذلك الخلافة الإسلامية[٨٨].

وإن كانت أكثر مؤلفات معارضي السلطان عبد الحميد سواء من داخل تركيا أو من خارجها تعتبر فترة حكمه فترة حكم استبدادي وديكتاتوري يغلب عليها طابع التخلف والرجعية، "فقد أوضح بعض الكتاب المتخصصين في التاريخ العثماني ومنهم: نيازي بيركز، وبرنارد لويس، وورودريك ديفيسون، وستانفورد شو – على سبيل المثال لا الحصر – أن معظم التغييرات التي بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر واستمرت حتى تولي عبد الحميد لم تتوقف حتى نهاية حكمه، وأن الإصلاحات – أو التغييرات ذات النمط الغربي – كانت ذات مقومات تجعل من

---

[٨٧] أعمدة الحكمة السبعة، ت. أ. لورنس، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م، ص ١٦.

[٨٨] انظر: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، الأميرة عائشة عثمان أوغلي، مرجع سابق، ص ٧.

الصعب جدًا الإبطاء في خطاها، في حين ثبت أن إيقافها كان مستحيلًا من الناحية العملية"[٨٩].

[٨٩] في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٤٠، ويراجع فيه:
Stephen Duguid, The politics of unity: Hamidian policy in Eastern Anatolia, p. 139.

الخاتمة

لقد تولى السلطان عبد الحميد مقاليد حكم الدولة العثمانية في مرحلة تاريخية تعتبر من أسوأ المراحل التي مرت بها الدولة العثمانية، وبالرغم من كل ما أقيل وأثير حوله من شبهات وأقاويل، بعضها يعتبر صحيحًا، وبعضها يعتريه الكذب والتدليس، وبين آراء مؤيديه ومعارضيه، فإن السلطان عبد الحميد كان سلطانا عثمانيا فريدا من نوعه، تميز بسياسته الإسلامية الحريصة على حماية دولة الخلافة حتى أطرافها البعيدة كفلسطين، التي أبى أن يفرط في شبر منها، ووقف في وجه المحن العظيمة التي ألمت بفترة حكمه بشموخ وعزة وإباء، حتى تحقق المحتوم، وهوت الدولة العثمانية بعد تماسكها الضعيف، وقامت على أنقاضها الجمهورية التركية بسياساتها ومبادئها الجديدة التي اختلفت كثيرا عن سياسات ومبادئ الدولة العثمانية المجيدة.

المراجع:

١–أعمدة الحكمة السبعة، ت. أ. لورنس، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

٢–تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣–تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: د. محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، تركيا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤–تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥–الحل والحرب، محمد حسنين هيكل، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة السابعة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦–الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٧–الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٨–الدولة العثمانية المجهولة، د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك، وقف البحوث العثمانية، (د. ط)، ٢٠٠٨م.

٩–صحوة الرجل المريض (السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية)، موفق بني المرجة، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، (د. ط)، ١٩٨٤م.

١٠–في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١١-مختصر تاريخ العالم، إي إتش غومبريتش، ترجمة: د. ابتهال الخطيب، عالم المعرفة، (د. ط)، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
١٢-مذكرات السلطان عبد الحميد، د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٣-والدي السلطان عبد الحميد الثاني، الأميرة عائشة عثمان أوغلي، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

.
.